# بين القلم والأجل . . تعقيب لم يكتمل !

د. علي أبو العز

ما أسطّره هنا ليس مقالاً علميًّا، بل هو مشهدٌ حيّ عشتُه بكل جوارحي، ولا يزال يسكن ذاكرتي كأنه وقع قبل لحظات.

كان ذلك في الملتقى العلمي الرابع للهيئات الشرعية الموحدة، حيث قُدّمت ثلاث أوراق علمية، كانت ورقتي إحداها، وكان المعقّبان هما فضيلة د. نظام اليعقوبي، وفضيلة د. أحمد حسن.

جرت الأمور في مسارها الطبيعي؛ أنهى د. نظام اليعقوبي مداخلته بسلاسة العالِم المتمكّن، ثم آن الدور للدكتور أحمد حسن ليبدأ تعقيباته، وقد فعل، فبدأ بالتعقيب على ورقة د. إبراهيم الضرير بإتقانٍ وبيان، ثم انتقل إلى ورقة د. يوسف الشبيلي يُفصّل ويُحلّل ويُفكّك المسائل، ويستحضر الآراء، وكأن الفقه ينسابُ على لسانه انسياب الماء.

الرقم ( ١ ) الذي لم يكتمل

وكنتُ حينها أجلس متأهبًا، أمسك ورقةً وقلمًا، وقد كتبتُ الرقم ( ١ ) استعدادًا لتدوين أوّل ملاحظة سيوردها الشيخ على ورقتي، كنتُ أترقّب اللحظة التي يُنهي فيها تعقيبه على ورقة د. الشبيلي ليلتفت إلى ورقتي . . مع أنه أشار إليها بين ثنايا تعقيباته.

لكنّ القدر كان يكتب سطرًا آخر.

فبينما هو يتحدّث عن ورقة د. الشبيلي، وقبل أن يصل إلى ورقتي، قال: "بسم الله" !

ثم تلاشى صوته فجأة، ولم تكتمل عبارته.

بدأ جسده يتهاوى، وكنت قريبًا جدًا منه، ورأيتُ على محيّاه ما لم أكن أعرف أنني سأراه يومًا بهذا القرب المُرعب: سكرات الموت! بل مات في حضني..

في تلك الثواني –التي بدت دهرًا– حدّثتُ نفسي أنها غيبوبةٌ عارضة، لأنّ العقل يرفض أن يُصدّق أنّ رجلاً كان قبل لحظات يتدفّق علمًا وفقهًا قد يرحل هكذا.. بين جملةٍ وأخرى، بين ورقةٍ وورقة، بين بسملةٍ وصمت أبديّ.

لم تكن "بسم الله" هذه افتتاحًا لفقرة جديدة في خطابه، بل كانت افتتاحًا لحياة أخرى أبدية، كانت البرزخ الفاصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب، بين ضجيج القاعة وصمت القبر.

كيف أصف لكم ما شعرتُ به؟

أن تجلس في قاعة علمية مكتظّة بالعلماء والباحثين، والأضواء مسلّطة، والأوراق مبسوطة، والأقلام مرفوعة.. ثم في لحظة واحدة يتحوّل كل ذلك إلى مشهد احتضار؟ أن ترى بعينيك روحًا تُنتزع من جسد صاحبها وهو يُعقّب على أبحاث فقهية؟ أن تكون المسافة بينك وبين الموت الحقيقي – لا كفكرة مجردة بل كمشهد ماثل – هي مسافة صفر!

بقيتُ أنظر إلى ورقتي التي لا يزال فيها ذلك الرقم "١" وحيدًا، يتيمًا، لم يُكتب بجواره حرف واحد، ولن يُكتب.

وأدركتُ حينها أنّ الله أراد لهذا الرقم أن يبقى فارغًا ليملأ قلبي بمعنى أعمق من كلّ تعقيب: أنّ الأعمار بيد الله، وأنّ الأجل لا ينتظر أحدًا، ولا يُراعي جدولَ أعمال، ولا برنامجَ ملتقى.

إننا نغترّ بجدول أعمالنا، ونرتب مواعيدنا للسنة القادمة، وننسى أن النَّفَسَ الذي يدخل قد لا يخرج.

لقد رحل الشيخ وهو يقول "بسم الله"، ويا لها من رحلة تبدأ باسم الله وتنتهي بلقائه.

خرجت من تلك القاعة وأنا أحمل يقينًا جديدًا.. يقينًا بأننا جميعًا نمسك بأقلامنا، ونكتب الرقم "١"، وننتظر.. ولكن لا أحد يدري متى يُسحب الورق، ومتى يُكسر القلم، ومتى يُقال لنا: انتهى الدرس.

ختامًا:

رحم الله الشيخ الدكتور أحمد حسن رحمةً واسعة، وجعل آخر كلماته نورًا له في قبره.

رحل ولم يُكمل تعقيبه على ورقتي، لكنه – من حيث لا يدري – كتب في قلبي أبلغ تعقيب قرأتُه في حياتي!

ولا يزال ذلك الرقم "١" في ورقتي شاهداً على تعقيبٍ لم يكتمل، وعلى عبرةٍ لن تنتهي.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون